

الباب السابع

جوانب مختصرة من أعمال ابن باديس

- أقوال.
- مقالات.
- فتاوى.
- تعريف بالرجال.
- نماذج من التفسير في مجالس التذكير.
- من كلام الحكيم العفيري.

جوانب مختصرة من أعمال ابن باديس

لا غرو أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان يتبع الحوادث السياسية المصيرية بدقة لا تخلو من العطف الرحب والانتقاد البناء، ويستخرج منها العبر اللازمة، ويرى النقائص، ويفكر في العلاج كرجل مثقف يهمله الأمر من قريب ومن بعيد بصفته عربياً مسلماً وإنساناً مستعمراً يتضامن مع جميع المنكوبين والضحايا في العالم. وهو يعتنى زيادة على ذلك بوضع المجتمع وبتقييم إمكاناته، وخلق أسس معقولة واقعية موضوعية لدعم المبادئ الخاصة بكيان الشعوب المغلوبة على أمرها، وكفاحه في حدود تاريخه ولغته وانتمائه إلى الأمة العربية المضطهدة يومذاك، وبفضل هذا السلوك الفكرى برهن الشيخ بن باديس على ميزة كان ينفرد بها بالنسبة لغيره من أكابر المصلحين في العالم الإسلامى (أو الكثير منهم) وهى ميزة الوعي السياسى الحاد الشامل فى صلته الوثيقة بالثقافة والمجتمع، لا يفصل طرفاً عن طرف آخر فى نهج المفاهيم وإحكام تكاملها ولا يبتتر من أبعاد تسلسلها المتناهية، وكان هذا الوعي السياسى الشامل المتيقظ آلة متقنة للفحص والمعرفة والكفاح معاً، وليست الثقافة من بين كل الأجزاء المترابطة المتماسكة قيمة مستقلة بذاتها تدعو إلى المتعة وتشيد بالتسلى فحسب، وليست اللغة هناك أداة مستقلة يسعها أن تتجنب ما يمس ذويها من تخلف وركود فتصبح منيعة معصومة بعيدة عما يعترى الناطقين بها من سوء المصير، وإن فى تفكير ابن باديس ولهجته لرنة عصرية تردد، وهى الأخرى صدى يأتى من الماضى يوم كان ينشئ العرب ثقافتهم وعلومهم بالجهد الشاق والعمل المستمر الخلاق، والنقد والتحليل.

وأصدق دليل على توجه ابن باديس الفكرى وفهمه لربط النتائج بأسبابها والفروع بأصولها ما نقرؤه فى مجلة «الشهاب» عدد نوفمبر عام ١٩٣٣م تحت عنوان «سقوط اللغة بسقوط أهلها».

والشهاب كانت مرآة لما يخالج وجدان ابن باديس ويحفل بأفكاره، وكانت فيما يخص الجزائر والمغرب والعالم العربى على العموم سجلاً شهرياً لمناجاة رائعة يتابعها الشيخ مع نفسه وهو ينادى فى حقيقة الأمر شعبه وأمة العربية.

تلك نبذة ولمحة تعطينا فكرة عن جانب مهم من سلوك الشيخ ابن باديس العقائدي في حقبة معينة من الزمن، تتصف بعقم محتوم مرعب على صعيد الخلق السياسي المجدد، كان هو فيها بلا منازع أكبر مؤيدي القومية العربية وأذكي العاملين من أجلها بروح حرة جسور تتماشى ومقتضيات الكفاح يومذاك، وتسعى في إخراج هذه العقيدة المشتركة مبدئياً بين العرب والمنحصرة لديهم، إلى أبعاد أخرى تقترب بنضال الشعوب المنكوبة، والتضامن مع جميع القوى الجماهيرية المعادية للاستعمار في العالم.

ويكفينا دليلاً ما كتبه عن هذه العقيدة في سبيل القومية العربية التي كانت ربما تفوق حدة ورواجاً فكرته في الوطنية، رغم مواقفه المشرفة العديدة في ميدان الجهاد السياسي الجزائري الحديث، ويكفينا دليلاً خطابه «العرب في القرآن» الذي ألقاه عام ١٩٣٩ م، وهو نص يعتبر نواة لمنهج العقائدي في القومية (١).

والنماذج التالية من أعمال ابن باديس من أقوال ومقالات وفتاوى وتعريف بالرجال ثم تفسير مميزات آيات من الذكر الحكيم، كل هذا بالمعنى العالم المتمكن من علمه والمجاهد الذي يرى في جهاده أسلوب حياة، والمصلح والداعية الذي وهبه الله تعالى حب مريديه عندما وضع نصب عينيه قول الحق تبارك في علاه:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [سورة النحل الآية ١٢٥].

من أقوال ابن باديس

* أتمنى لإخواننا المسلمين في كل ناحية أن يشتغلوا بما يهم وينفع، ويعلى ويرفع، ويعرضوا عن سفاسف الأمور وبسائط المسائل، فدينهم دين العصم والمدنية، لا دين الجمود والهمجية، وعصرهم عصر جد وفصل، لا عصر لعب وهزل، والمتخلف عن القافلة هو بلا شك عرضة للإتعااب وطعمة للذئاب (٢).

* * *

(١) انظر: معاصرنا الجليل الشيخ عبد الحميد بن باديس بين الوطنية الجزائرية والقومية العربية - مصطفى الأشرف - في ذكرى وفاة ابن باديس الواحدة والثلاثين - ملحق جريدة الشعب الجزائرية.

(٢) البصائر عدد فبراير ١٩٣٧ م.

* أيها المسلم الجزائري هاك وصايا نافعة مختصرة على وجه الإجمال وسنعيدها عليك مختصرة على وجه التفصيل .

هاك آدابا تقتضيها إنسانيتك ويفرضها عليك دينك وتستدعيها مصلحتك في هاته الحياة .

هاك ما إن تمسكت به كنت إنسان المدنية ورجل السياسة وسيدا حقيقيا يرمق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم .

حافظ على صحتك ، فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك .

قه أهلك وولدك ومن إلى رعايتك عما تقى منه نفسك ، وسيُرهم على نظام صحي وقانون أدبي تكفل سعادة وهناء عائلتك ورخاء عيشك وهدوء بالك .

حافظ على عقلك فهو النور الإلهي الذي منحته لتهتدي به إلى طريق السعادة في حياتك .

حافظ على مالك فهو قوام أعمالك ، فاسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته ، واطرق كل باب خيري لبذله .

كن عصريا في فكرك ، وفي عملك وفي تجارتك وفي صناعتك ، وفي فلاحتك ، وفي تمدنك ورفيقك ، كن صادقا في معاملاتك بقولك وفعلك .

احذر من الخيانة : الخيانة المادية في النفوس والأعراض والأموال والخيانة الأدبية ببيع الخدمة والشرف والضمير .

احذر من التعصب الجنسي الممقوت فإنه أكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط ، كن أخا إنسانيا لكل جنس من أجناس البشر ، وخصوصا ابن جلدتك المتجنس بجنسية أخرى ، فهو أخوك في الدم الأصلي على كل حال كن محسنا لكل أحد من كل جنس ودين فدينك الشريف يأمرك بالإحسان .

ثق بأن سياسة الصدق والصراحة والإخلاص المرتكزة على الحب والعمل والتعاون لا بد أن تظهرك أمام العالم بمظهرك الحقيقي برغم كل الغيوم التي ينشرها حولك خصوصك ومنافسوك (١) .

* * *

(١) الشهاب عدد ٤٩ السنة الثالثة ١٥ صفر ١٣٤٥ هـ - ٢٣ أغسطس ١٩٢٦ م .

من مقالات ابن باديس

الإسلام الذاتى والإسلام الوراثى ... أيهما ينهض بالأمم ؟

يولد المرء عن أبوين مسلمين فيعد مسلما، فيشب ويكتهل ويشيخ وهو يعد من المسلمين، تجرى على لسانه وقلبه كلمة الإسلام، وتباشر أعضاؤه عبادات وأعمالا إسلامية، فراق روحه أهون عليه من فراق الإسلام، لو نسبته لغير الإسلام لرأيت منه . . . لشار عليك أو بطش بك، ولكنه لم يتعلم يوما شيئا من الإسلام، ولا عرف شيئا من أصوله فى العقائد والأخلاق والآداب والأعمال، ولم يطلق شيئا من معانى القرآن العظيم ولا أحاديث النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - فهذا مسلم إسلاما وراثيا لأنه أخذ الإسلام كما وجدته من أهله، ولا بد أن يكون بحكم الوراثة قد أخذه بكل ما فيه مما أدخل عليه، وليس منه من عقائد باطلة وأعمال ضارة وعادات قبيحة فذلك كله عنده هو الإسلام، ومن لم يوافق على ذلك كله فليس عنده من المسلمين .

هذا الإسلام الوراثى هو الإسلام التقليدى الذى يؤخذ بدون نظر ولا تفكير، وإنما يتبع فيه الأبناء ما وجدوا عليه الآباء، ومحبة أهله للإسلام، إنما هى محبة عاطفية بحكم الشعور والوجدان .

هذا الإسلام الوراثى هو إسلام معظم عوام الأمم الإسلامية، ولهذا تراها مع ما أدخلت على الإسلام من بدع اعتقادية وعملية، ومع ما أهملت من أخلاق الإسلام وآدابه وأحكامه متمسكة به غاية التمسك لا ترضى به بديلا ولو لحقها لأجل تمسكها به ما لحقها من خصومه من بلاء وهوان .

هذا الإسلام الوراثى حفظ على الأمم الضعيفة المتمسكة به - وخصوصا العربية منها - شخصيتها ولغتها، وشيئا كثيرا من الأخلاق ترجع به الأمم الإسلامية إذا وزنت بغيرها، ومن ذلك خلق العفة والطهر الذى حفظ نسلها فتراه يتزايد بينما تشكو أم أخرى غير إسلامية من نقصان نسلها .

إن هذا الإسلام الوراثى لا يمكن أن ينهض بالأمم؛ لأن الأمم لا تنهض إلا بعد تنبيه أفكارها وتفتح أنظسارها، والإسلام الوراثى مبنى على الجمود والتقليد فلا فكر فيه ولا نظر .

أما الإسلام الذاتى، فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام، ويدرك محاسن الإسلام فى عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله ويتفقه - حسب طاقته - فى الآيات القرآنية

والأحاديث النبوية ويبنى ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه فحياته حياة فكر وإيمان وعمل، ومحبته للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان، كما هي بمقتضى الشعور والوجدان.

هذا الإسلام الذاتى هو الذى أمرنا الله به فى مثل قوله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَىٰ شِئْءٍ وَأَنْ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سورة سبأ الآية ٤٦].

فبالتفكير فى آيات الله السمعية وآياته الكونية، وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر تنهض الأمم فتستثمر ما فى السموات وما فى الأرض، وتشيّد صروح المدنية وال عمران. إذاً: فنحن المسلمون مطالبون بأن نكون مسلمين إسلاماً ذاتياً. . . فبماذا نتوصل إلى هذا الواجب المفروض؟

لذلك سبيل واحد، هو التعليم، فلا يكون المسلم مسلماً حتى يتعلم الإسلام، فالمسلمون - أفراداً وجماعات - مسئولون عن تعلم وتعليم الإسلام للبنين والبنات للرجال والنساء كل بما استطاع، والقليل من ذلك خيره كثير، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [سورة القمر الآية ١٧].

* * *

الوحدة العربية: هل بين العرب وحدة سياسية؟

إذا قلنا العرب فإننا نعنى هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندى شرقاً إلى المحيط الأطلنطى غرباً، والتي فاقت المائة مليون عدداً تنطق بالعربية وتفكر بها، وتتغنّى من تاريخها، وتحمل مقداراً عظيماً من دمها، وقد صهرتها القرون فى بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة.

هذه الأمة العربية تربط بينها - زيادة على رابطة اللغة - رابطة الجنس، ورابطة التاريخ، ورابطة الأسم، ورابطة الأمل، فالوحدة القومية والأدبية متحققة بينها ولا محالة، ولكن هل بينها وحدة سياسية؟ هذا هو الموضوع الذى طرقة الأمير شكيب أرسلان، وقال فيه كلمة السياسى العملى والخبير المحنك، فتعرض له سليمان باشا البارونى بمقال نقضناه وفضحناه ما فيه من خطأ وتحامل.

الوحدة السياسية لا تكون إلا بين الشعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تسيير عليها فى علاقاتها مع غيرها من الأمم وتتعاقد على تنفيذها، وتكون كلها فى تنفيذها والدفاع عنها يدا واحدة .

فهى مقتدرة على الدفاع عنها كما كانت حرة فى وضعها، وأما الأمم المغلوبة على أمرها فهذه لا تستطيع أن تضع أمراً لنفسها فكيف تستطيع أن تضعه لغيرها، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها فكيف تستطيع أن تدافع عما تقرره مع غيرها، وهى لم تستطع أن تعتمد على نفسها فى داخليتها فكيف يعتمد عليها فى خارجيتها؟ فالوحدة السياسية بين هذه الأمم أمر غير ممكن ولا معقول ولا مقبول .

وإذا نظرنا إلى الأمة العربية على ضوء هذه الحقيقة فإننا نجد منها شعوبا مستقلة استقلالاً حقيقياً فهذه تمكن بينها الوحدة السياسية وتجنب، وقد وقعت - والحمد لله - بين بعض الدول .

ثم نجد شعوبا أخرى وهى شعوب الشمال الإفريقى المصابة بالاستعمار فهذه لا وحدة سياسية بينها ولا بين غيرها ولا يتصور أن تكون، ومن الخير لها أن تعمل كل واحدة منها فى دائرة وضعيتها الخاصة على ما يناسبها من الخطط السياسية التى تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة مع الشعور بالوحدة القومية والأدبية العامة والمحافظة عليها والمجاهرة بها، ونحن نعلم أن الواقع اليوم فى شمالنا الإفريقى العربى هو هذا بعينه، فنقول - بكل صدق وصراحة - إن كل شعب من شعوب هذا الشمال مستقل تمام الاستقلال بخططه فى سياسته، لا نعرف هيئة منها تتصل بهيئة مع عمل الجميع على تغذية الشعور بالوحدة القومية والأدبية العامة .

والأمير شكيب الذى تعده الدول المستعمرة ألد أعدائها وتنسب إليه - ظلماً وزوراً - كل حركة تقع فى الأمم المصابة باستعمارها يصرح فى خطابه بعدم الوحدة السياسية بين شعوب العرب المغلوبة على أمرها وشعوبهم المستقلة، لأنه - وهو أكبر مدافع عن العرب والإسلام فى الغرب والشرق - رجل عملى ليس بخيالى، وسياسى مجرب خبير يعرف ما يقول ويفرق بين العمل المثمر والقول الفارغ الذى يثير الضجيج لينسب صاحبه إلى الغيرة والحماس، وإن كان يثير الغبار ويكدر الجو فى نواح أخرى .

هذا رأينا في الوحدة السياسية بين شعوب العرب ، ونحن نعتقد أنه هو رأى جميع إخواننا العاملين في هذا الشمال (١) .

* * *

فلسطين الشهيدة :

رحاب القدس مثل رحاب مكة والمدينة ، وقد قال الله - سبحانه وتعالى - في المسجد الأقصى في سورة الإسراء : ﴿الذى باركنا حوله﴾ ليعرفنا بفضل تلك الرحاب . فكل ما هو واقع بها كأنه واقع برحاب المسجد الحرام ، ومسجد طيبة ، حمى الإسلام تلك الرحاب من أيامه الأولى ، وحمى جميع مقدسات جميع الملل ، وكف عادية بعضهم عن بعض ، وعاش اليهود تلك القرون الطويلة ينعمون برخاء العيش وحرية الاعتقد واحترام المعاهد .

تزوج الاستعمار الإنجليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فانتجا لقسم كبير الطمع الأعمى الذى أنساهم كل ذلك الجميل وقذف بهم على فلسطين الأمانة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيما لا يطاق ، وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحا لا يندمل .

نقول لقسم كبير من اليهود لأن هنالك من اليهود عدداً كثيراً يستنكر هذا المآتى الجنونى الظلوم ، ويعترف بجميل الإسلام والسعادة التى نعم بها اليهود ، ويهود القدس فى ظل الوارف الأمين ، فقد قدم رئيس الطائفة السامرية إلى حاكم نابلس عريضة احتج فيها باسم الطائفة على الاعتداءات الأثيمة التى وقعت على العرب فى القدس وحيفاً ويافا هذا نصها :

«نحن أفراد الطائفة السامرية رجالاً ونساء نستنكر بشدة أعمال الاعتداءات الفظيعة التى يقوم بها أشخاص من اليهود ضد قوم أبرياء فى حيفا ويافا والقدس ، ونطلب بشدة الخيلولة دون تكرار هذه الحوادث المروعة ، ونصرح بأننا - على أقليتنا - نعيش منذ ألوف السنين مع مواطنينا العرب فى سلام» .

هذه هى الحالة العامة التى كانت عليها فلسطين ألوف السنين ، حتى جاء الزوجان المشثومان الصهيونية والاستعمارية ، فكان البلاء على فلسطين كلها ، عربها ويهودها . فليست الخصومة بين كل عرب فلسطين ويهودها ، ولا بين كل مسلم ويهودى على وجه

(١) الشهاب : ج ١١ ص ٤٧٢ غرة ذى القعدة ١٣٥٦ هـ .

الأرض، بل الخصومة بين الصهيونية والاستعمار الإنجليزي من جهة والإسلام والعرب من جهة، والضحية فلسطين والشهداء حماة القدس الشريف والميدان رحاب المسجد الأقصى، وكل مسلم مسئول أعظم المسئولية عند الله تعالى على كل ما يجرى هناك من أرواح تزهق وصغار تيتم ونساء ترمل وأموال تهلك وديار تخرب وحرمان تنتهك، كما لو كان ذلك كله واقعا بمكة أو بالمدينة إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع.

يريد الاستعمار الإنجليزي الغاشم أن يستعمل الصهيونية الشرهة لقسم الجسم العربى وحط قدس الإسلام، فيملاً فلسطين بالصهيونيين المنبوذين من أم العالم، ولأجل هذه الغاية الظالمة تجند جنود الإنجليز وتجمع أموال الصهيونية وتسفك الدماء البرثية وتلطيخ بها الرحاب المقدسة.

يجرى كل هذا وترتفع له أصوات العالم الإسلامى والعالم العربى بالاحتجاج والاستنكار ويخاطب ملوك العرب والإسلام حكومة الإنجليز فلا تزيد أذانها إلا صمما ولا قلبها إلا تحجراً.

نقول العالم الإسلامى والعالم العربى لأننا لم نر ولم نسمع من غيرهما احتجاجاً جدياً واستنكاراً صارخاً، حتى الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها بصراخهم ويبدلون ما يبدلون من مساعداتهم فى أوطان أخرى لم نرهم إزاء فلسطين الشهيدة إلا سكوتاً أو شبه سكوت، وشتان ما بين من يريد المقاومة ومن يريد رفع الملام.

نحن - المسلمون، أعداء الظلم لطبيعتنا الإسلامية، ونرحم المظلوم ولو كان هو ظالماً لنا. منذ أيام كنت فى حانوت تاجر مسلم، وقد قرأ على أخباراً عن اضطهادات ألمانية جديدة على اليهود، فلما فرغ من القراءة قال لى: «هذا يا شيخ حرام عندنا فى الإسلام، نحن نترك الناس كلهم يعيشون بأموالهم»، فقلت له: نعم. وأخذت أبين له كيف عاش اليهود فى ظل الإسلام، هذا عامى من أوساط الناس متمسك بدينه ومتألم من حالة القدس الشريف ويعرف أن بلاءها من مهاجرة يهود ألمانيا وغيرهم ومع ذلك يستنكر ما يلحقهم من الظلم، وها هم اليهود اليوم قد شردتهم ألمانيا ومن قوانينها الجديدة عليهم بيع أملاكهم ببرلين بالمزاد العام ومنعهم فى المستقبل من الامتلاك، ومنعهم من صناعة الطب بتاتا.

والحكومة اليونانية منعتهم من دخول أرضها ولو على سبيل السياحة، وإيطاليا

أخذت في اضطهادهم بأساليب علمية دقيقة وسياسية قاتلة، وفرنسا أيضا قد هبت عليها هبات من هذه السموم ستصيب اليهود أو قد أصابهم شيء من لفحها.

هذا حالهم اليوم بين الأمم المسيحية وقد عادوا - أو كادوا - كما كانوا في القرون الوسطى لا يطمثون على أزواجهم وأموالهم وثقافتهم إلا في بلاد الإسلام، وما هم مع ذلك يستمرون على ظلم الإسلام في قدس الإسلام، ولا ناهى لهم ولا ناصح ممن يسمعون لنهييه ونصحه، وما يدريهم أن هذا البلاء الذي ابتدئ بصبه عليهم هو جزاء ظلمهم لفلسطين ظلم الفعل، وظلم الرضا، وظلم السكوت عن الاستنكار، وإن الله - سبحانه - لينتقم من الظالم بالظالم ثم ينتقم من الجميع.

إن الدفاع عن القدس من واجب كل مسلم، وقد هب رجالات الإسلام في الشرق للقيام بهذا الواجب، فهناك من ناحية الحكومات ما يقوم به وزير مصر ووزير العراق باسم ملوك العرب في لندن، وهناك اللجنة البرلمانية المصرية للدفاع عن فلسطين تضم فريقا كبيرا من حضرات الشيوخ والنواب المصريين، وقد اعتزموا على عقد مؤتمر برلماني عام للبحث في قضية فلسطين على أن يشترك في المؤتمر أيضا زعماء العرب والمسلمين في الأوطان العربية والإسلامية التي لا توجد فيها برلمانات، وصح عزم اللجنة على أن يعقد المؤتمر في مدينة القاهرة ١٢ شعبان ١٣٥٧هـ - ١٧ أكتوبر ١٩٣٨م

سيكون هذا المؤتمر الأول من نوعه في الشرق العربي، وستعرف به الصهيونية والاستعمار البريطاني أنهما أمام العالمين الإسلامي والعربي لا أمام فلسطين وحدها.

فعلى المسلمين كلهم أن يؤيدوا هذا المؤتمر برفع أصواتهم إليه، وعلى اليهود الذين ينكرون ظلم الصهيونية وشرها أن يفتنموا هذه الفرصة الفريدة لإعلان استنكارهم.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَأُتَصِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [سورة الأنفال الآية ٢٥] (١).

وهكذا كان لابن باديس دور إعلامي مهم بالنسبة لفلسطين وقضيتها التي شغلت العالمين العربي والإسلامي منذ أمد بعيد.

(١) الشهاب الجزء ٦ جمادى الآخرة ١٣٥٧هـ - أغسطس ١٩٣٨م.

ثمن اعيش؟

أعيش للإسلام والجزائر، قد يقول قائل: إن هذا ضيق في النظر، وتعصب للنفس، وقصور في العمل، وتقصير في النفع، فليس الإسلام وحده ديناً للبشرية، ولا الجزائر وحدها وطن الإنسان، ولأوطان الإنسانية كلها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية، ولكل دين من أديانها حقه من الاحترام.

فأقول: نعم، إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها، والحدب عليها في جميع أوطانها، واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها - هو ما نقصده ونرمي إليه - ونعمل على تربيتنا وتربية من آتينا عليه، ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون وساطة فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع، ونحن لما نظرنا في الإسلام وجدناه الدين الذي يحترم الإنسانية في جميع أجناسها، فيقول:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [سورة الإسراء الآية ٧٠].

ويقرر التساوي والأخوة بين جميع تلك الأجناس، ويبين أنهم كانوا أجناساً للتمييز لا للتفضيل، وإن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط، فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات الآية ١٣]

ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم بما يجمعها من وحدة الأصل وشائج القرابة القريبة والبعيدة فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [سورة النساء الآية ١].

ويقرر التضامن الإنساني العام بأن الإحسان إلى واحد إحسان إلى الجميع، والإساءة إلى واحد إساءة إلى الجميع، فيقول:

﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة الآية ٣٢].

ويعترف بالأديان الأخرى ويحترمها، ويسلم أمر التصرف فيها لأهلها، فيقول:

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون الآية ٦].

يقرر شرائع الأمم، ويهون عليها شأن الاختلاف ويدعوها كلها إلى التسابق في الخيرات، فيقول:

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [سورة المائدة الآية ٤٨].

ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق، فيقول:-

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [سورة المائدة الآية ٨].

ويحرم الاعتداء تحريماً عاماً على البغيض والحبيب فيقول:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾ [سورة المائدة الآية ٢].

ويأمر بالإحسان العام، فيقول:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [سورة النحل الآية ٩٠].

ويأمر بحسن التخاطب العام فيقول:

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [سورة البقرة الآية ٨٣].

فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا في الإسلام وهو الدين الذي فطرنا الله عليه لفضله، وعلمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وإن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وإن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته، ونشر هدايته وخدمة كل ما هو بسبيله، ومن ناحية فإذا عشت له فإني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها، وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله.

والآن - أيها الإخوان - وقد فهمتوني وعرفتكم سمو فكرة العيش للإسلام . . . فهل تعيشون مثلى للإسلام؟^(١).

محمد - صلى الله عليه وسلم - رجل القومية العربية :

جاء بكتاب آثار ابن باديس ج٢ مجلد ٢ ص ١٧ - ٢١ قوله :

«لا يستطيع أن ينفع الناس من أهمل أمر نفسه ، فعناية المرء بنفسه - عقلا وروحا وبدنا - لازمة له ليكون ذا أثر فعال في الناس على منازلهم منه في القرب والبعد ، ومثل هذا كل شعب من شعوب البشر لا يستطيع أن ينفع البشرية ما دام مهملًا مشتتًا لا يهديه علم ، ولا يمتنه خلق ، ولا يجمعه شعور بنفسه ولا بمقوماته ولا بروابطه ، وإنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله فأخذ الأصول الثابتة من الماضي ، وأصلح من شأنه في الحال ، ومد يده لبناء المستقبل يتناول من زمنه وأم عصره ما يصلح لبنائه معرضا عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصالحته .

فمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو رسول الإنسانية ، كانت أول عنايته موجهة إلى قومه ، وكانت دعوته على ترتيب حكيم بديع لا يمكن أن يتم إنسانيا أو شعبيا إلا بمراعاته : فكان أول دعوته - صلى الله عليه وسلم - لعشيرته لقوله تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء الآية ٢١٤] . فلما نزلت صعد الصفائح نادى : «يا صباحاه» وكانت دعوة الجاهلية إذ ادعاها الرجل اجتمعت إليه عشيرته ، فاجتمعت إليه قريش عن بكرة أبيها ، فعم وخص فقال :

«أرايتكم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أمصدقكم؟»

قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، يا بني كعب بن لؤى ، يا بني مرة بن لؤى ، يا آل عبد شمس ، يا آل عبد مناف ، يا آل عبد المطلب ، يا صفية ، يا فاطمة سلوني من مالي ما شئتم ، واعلموا أن أوليائي يوم القيامة المتقون ، فإن تكونوا يوم القيامة مع قرابتكم فذلك وإياي لا يأتي الناس بالأعمال

(١) ملخص محاضرة ألقاها الشيخ عبد الحميد بن باديس على أعضاء جمعية التربية والتعليم الإسلامية ونشرتها مجلة (الشهاب) ديسمبر ١٩٣٦ م.

وتأتون بالذنيا تحملونها على أعناقكم فأصد بوجهي عنكم، فتقولون يا محمد فأقول هكذا - وصرف وجهه إلى الشق الآخر - غير أن لكم رحماً سابلها ببلالها . . ثم وجه دعوته إلى بقية العرب لقوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [سورة السجدة الآية ٣].

وهم عامة العرب، فكان يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج وما يتصل بها من أسواقهم، ثم عمم دعوته لقوله تعالى:

﴿لَأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [سورة الأنعام الآية ١٩].

فكاتب - صلى الله عليه وسلم - ملوك الأمم، وقد عمّت دعوته العرب، وتهيأ أمرهم لعموم دخولهم في الإسلام وكان ذلك أيام هذنته مع قريش قبيل فتح مكة - ثم تجد أكثر السور المكية قد وجه فيها الخطاب إلى قريش وإلى العرب، وعولجت فيه مفاسدهم الاجتماعية وضلالاتهم الشركية، وما كان منهم من تحريف وتبديل لملة إبراهيم، فكان أول الإصلاح متوجها إليهم ومعنيا بهم حتى يتشلوا من وهدة جهلهم وكان في هذا ما أشعرهم بوحدتهم بالتفافهم حول مركز واحد ينتهون كلهم إليه، ويشتركون فيه، وقد نبه على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [سورة الزخرف الآية ٤٤]

فأخبره أن القرآن شرف له ولقومه - نزل بلغتهم وينهض بهم من كبوتهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور وهياهم لهداية الأمم وإنقاذها من الهلاك وقيادتها لعزها وسعادتها، وأنهم يسألون عن هذه النعمة . . يقول هذا ليعملوا بالقرآن ويعلموا أن شرفه إنما هو للعالمين.

على أن العرب رشحوا لهداية الأمم، وإن الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام، وهو لسان العرب فينمو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلمون لغتها، ويهتدون مثلها بهدى الإسلام، علم هذا فيين أن من يتكلم بلسان العرب فهو عربي، وإن لم يتحدر من سلالة العرب، فكان هذا من غايته بهم لتكثير عددهم لينهضوا بما رشحوا له.

بين هذا في حديث رواه ابن عساكر في تاريخ بغداد بسنده عن مالك الزهوي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي

وصهيب الرومي وبلال الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعني النبي - صلى الله عليه وسلم) فما بال هذا (يعني الفارسي والرومي والحبشي ما يدعوهم إلى نصره وهم ليسوا عربا مثل قومه) فقام إليه معاذ بن جبل - رضى الله عنه - فأخذ بتلابيبه (ما على نحره من الثياب) ثم أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره بمقالته فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - مغضبا يجر رداءه (لما أعجله من الغضب) حتى أتى المسجد ثم نادى: الصلاة جامعة (ليجتمع الناس) وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : «أيها الناس، الرب واحد والأب واحد، وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي» .

فقام معاذ فقال: فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله؟ قال: «دعه إلى النار» فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل .

تكاد لا تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزائها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد: ولو وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباعد تفكير، ثم وضعت شاميا وجزائريا مثلا ينطقان باللسان العربي ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله، لو فعلت هذا لأدرت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم.

فانظر بعد هذا إلى ما قرره هذا النبي الكريم، رسول الإنسانية ورجل القومية العربية في الحديث المتقدم فقضى بكلمته تلك على العصبية والعنصرية الضيقة المفرقة، فنبه على تساوي البشر في أنهم كلهم مخلوقون لله، فربهم واحد وإنهم كلهم من عنصر واحد، فأبوهم آدم واحد، وذكر بأخوة دين الإسلام دين الأخوة البشرية والتسامح الإنساني ثم قرر قاعدة عظمى من قواعد العمران والاجتماع في تكوين الأمم، ووضع للأمة العربية قانونا دينيا اجتماعيا طبيعيا لتتسع دائرتها لجميع الأمم التي رشحت لدعوتها إلى الإسلام بلغة الإسلام، وقد كان ذلك من أعظم ما سهّل نشر الهداية الإسلامية وتقارب عناصر البشرية وامتزاجها بعضها ببعض حتى كان ثمرة اتحادها وتعاونها ذلك التمدن الإسلامي العربي الذي أنار العالم شرقا وغربا، وكان السبب في نهضة الغرب والأساس لمدينة اليوم، وبذلك أيضا كانت الأمة العربية لا تخلو منهم قارة من قارات المعمورة .

كوّن رسول الإنسانية ورجل القومية العربية أمته هذا التكوين المحكم العظيم، ووجهها لتقوم للإسلام والبشرية بذلك العمل الجليل، فلم يكونها لتستولى على الأمم، ولكن لتقدّمهم من سلطة المتسولين باسم الملك أو باسم الدين، ولم يكونها لتستخدم الأمم في مصالحها، ولكن لتخدم الأمم في مصالحهم، ولم يكونها لتدوس كرامة الأمم وشرفها، ولكن لتنهض بهم من دركات الجهل والذل والفساد إلى درجات العز والصلاح والكرامة وبالجملة، لم يكونهم لأنفسهم بل كونهم للبشرية جمعاء، فبحق قال فيهم الفيلسوف العظيم «جوستاف لوبون» لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب، نعم لأنهم فتحوا فتح هداية لا فتح استعمار، وجاءوا دعاة سعادة لا طغاة استعباد.

هذا هو رسول الإنسانية ورجل القومية العربية الذي كان له الفضل - بإذن الله - عليهما ويشهد المنصفون من غير العرب وغير المسلمين بهذا الفضل، وتتغنى العرب غير المسلمين بذكره، وكم دبجت أقلام الكتاب والشعراء من إخواننا النصارى العرب بالشرق من حلل البيان في الثناء عليه والإشادة بفضله.

هذا هو رسول الإنسانية ورجل الأمة العربية الذي نهتدى بهديه، ونخدم القومية العربية خدمته . . . ونوجهها توجيهاً، ونحيا لها ونموت عليها، وإن جهل الجاهلون . . . وخذع المخدوعون . . . واضطرب المضطربون»^(١)،^(٢).

منهج ابن باديس في التعريف بالرجال

الشيخ رشيد رضا

وكما كان لابن باديس منهج فيما أصدر من فتاوى كان له أيضاً منهج في التعريف بالرجال، منهج لا يتوخى التعقيد اللفظي بل في سهولة ويسر يهتم بكل صغيرة وكبيرة، وفي أمانة تاريخية متناهية، تقدم الشخصية بكل أبعادها، وهو هنا يعرف بالشيخ «محمد رشيد رضا» وتعريفه ليس مجرد سرد تاريخي إنما تداخل بالرأى يضيف على التعريف نوعاً مميزاً من الموضوعية يبدأ بمولد الشيخ، ثم تتوالى عناصر التعريف به من كل الجوانب.

(١) آثار ابن باديس ج ٢ مجلد ٢ ص ١٧ - ٢١ .

(٢) الإسلام والعروبة - د/ محمد عمارة .

مولد الشيخ ونشأته :

ولد الشيخ رشيد رضا عام ١٢٩١هـ - ١٨٦٥م بقريّة من قرى لبنان .

بيت شرف ودين وعلم وفضل وصلاح يعرفون بالمشايخ من قريتهم وإليهم يرجع أهلهم في الدين وإصلاح الشئون .

ونشأ في هذه البيت الطاهر ، نشأة علم ودين ، وتقوى وشعور بواجبات القيام بحاجات الناس وإيصال الخير إليهم .

تعلّمه وشيوخه :

قرأ القرآن وتعلّم الخط والحساب في كتاب قريتهم ، وحبب إليه من الكتب كتب الأدب والتصوف ، فكان يقرأ كتاب الإحياء لحجة الإسلام الغزالي ، فطبعه بطابع الزهد والتدين وأكسبه ملكة العربية الفصيحة والأسلوب المرسل في البيان . ثم أدخل مدرسة ابتدائية جميع التدريس فيها باللغة التركية فلم يقدّم فيها إلا سنة ، ثم في سنة ١٣٠٢هـ دخل مدرسة الأستاذ حسين الجسر ، وكان هذا العلامة أنشأ مدرسة لتعليم علوم الدين واللغة العربية واللغات الأجنبية والعلوم الدنيوية على الطريقة العصرية مع التربية الإسلامية الوطنية . فتخرج في العلوم العربية والشريعة والعقلية على الأستاذ الجسر في مدة ثماني سنوات وكتب له شهادة العالمية .

وتشبع بروحه في ضرورة الجمع بين علوم الدين وعلوم الكون المادية والاجتماعية والعمرائية مع التربية الإسلامية لنهضة الأمة . وأخذ الحديث وفقه الشافعية عن شيخ الشيوخ العلامة محمود نشافة ، وحضر قليلاً من كتاب نيل الأوطار للشوكاني على العلامة الشيخ عبد الغنى الرافعي واستفاد كثيراً من معاشرته في العلم والأدب والتصوف ، وتلقى بعض كتب الحديث على العالم المحدث الشيخ محمد القاوقجي .

الكتب التي خرجته :

شغف بكتاب الإحياء فطالعه كله وأعاد مطالعته فكان له الأثر الصالح في زهده وأخلاقه وإخلاصه في العلم وتقواه في العمل ، وكان طريقه منه في فهم الدين أنه دين روحاني أخروي فقط ، وأن إرشاد المسلمين محصور في «تصحيح عقائدهم ونهيمهم عن

المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم في الدنيا» . ثم اتفق له في أثناء مدة طلبه للعلم - وهو يقلب أوراقا علمية لأبيه - أن وجد عدد من جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها حكيم الشرق جمال الدين الأفغانى والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فقرأهما بشوق ولذة؛ بعثاه على البحث عن بقية أعدادها، فلما قرأ ما وجد منها المرة بعد المرة؛ أحدثت فيه أثرا جديدا ونقلته من طور إلى طور وصار طريقه في فهم الإسلام أنه «دين روحى جسمانى أخروى دنيوى من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض بالحق ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل» وأن إرشاد المسلمين يجب أن يكون - مع تصحيح عقائدهم ونهيه عن المحرمات وحثهم على الطاعات - «إلى المدنية والمحافظه على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة» .

تنسكه :

حبيب إليه كتاب الإحياء مجاهدة نفسه على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام والاكتفاء بقليله والنوم على الأرض وغير ذلك، وأخذ أوراد الشاذلية عن شيخه أبى المحاسن القاوقجى أعبد عباد شيوخ الطريق فى وقته، ورغب منه أن يسلكه الطريق على الأصول العملية إذ لم يعجبه أن يسلك الطريق على وجه صورى من تلاوة الأوراد وحضور الاجتماعات، فقال له الشيخ «يا بنى إننى لست أهلا لما تطلب فهذا بساط قد طوى وانقرض أهله» ثم تلقى الطريقة النقشبندية وقطع مراتبها كلها فكان تنسكه - أولا - تصوفا طريقيا شاذليا فنقشبنديا بما فيه من حق وباطل وهدى وضلال .

تخلص نسكه من الباطل والضلال :

دعاه شغفه بكتاب الإحياء إلى اقتناء شرحه للجليل للإمام المرتضى الحسينى، فلما طالعه ورأى طريقته الأثرية فى تخريج أحاديث الإحياء؛ فتح له باب الاشتغال بعلوم الحديث وكتب السنة وتخلص مما فى كتاب الإحياء من الخطأ الضار - وهو قليل - «ولا سيما عقيدة الجبر والتأويلات الأشعرية والصوفية والغلو فى الزهد وبعض العبادات المبتدعة» وترك أوراد الشاذلية لما علم أن قراءتها «من البدع التى جعلت من قبيل الشعائر والشرائع التى شرعها الله تعالى على ما فيه (أى ورد السحر وأمثاله) من الأمور

والأقسام المتقدمة شرعا» واستبدل بها قراءة القرآن ووردا آخر فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم «ليس فيه شبهة بدعة من توقيت وجهر وصيغ منكورة ومضاهاة الشعائر الموهمة للمأثور عن الشارع» كما ترك أوراد النقشبندية وذكرها «غير المشروع المخالف لجميع ما ورد فى الذكر المأثور» وبين ما فى رابطتها من شرك أو بدعة .

فتخلص نسكه - بعد طرح ذلك كله - للتسك الإسلامى من تجريد التوحيد وتزكية النفس وتقويم الأعمال، وتصحيح النية ومحاسبة النفس ومراقبة الله فى جميع الأعمال والزهد فى الدنيا والعمل للأخرة والمبالغة فى العبادات المشروعة والاعتصام بالورع، موزونا ذلك كله ومضبوطا بالكتاب والسنة وما كان عليه أهل القرون الثلاثة الصحابة والتابعون وأتباع التابعين رضى الله عنهم أجمعين . وهذا هو الذى يراد بالتصوف إذا جاء اسم التصوف فى كلام علماء السنة والأثر . وقد كان السيد محمد رشيد رضا رحمه الله من أئمتهم . فهذا هو تنسكه وهذا هو تصوفه .

تعليمه وإرشاده :

تصدى للتدريس فى مسجدهم . حيث كان عمه - كأسلافه - يقوم بالإمامة والخطابة والتدريس فكان يقضى للرجال دروسا فى الفقه الشافعى ودروسا فى التوحيد بالسنوسية، ولما رأى صعوبتها عليهم وضع لهم عقيدة سهلة، وكان يريهم فى تعليمهم بما يحثهم عليه من القيام بالشعائر الدينية، وكان يلقي عليهم المواظب الدينية معتمدا فيها على آيات القرآن العظيم . ثم لم يكتف بما يقوم به من التعليم والإرشاد فى المسجد، فكان يذهب إلى مقهى يجتمع فيه العوام فيعظهم ويرشدهم حتى هدى منهم من هدى الله .

ورأى على المرشد هداية النساء مثل ما عليه هداية الرجال، فكن يجتمعن فى دار أسرته فيلقى عليهن العقائد والأحكام والآداب فى عبارات سهلة بدون كتاب، وكان يأمرهن بتغيير زيهن بما هو أستر وأطهر حتى تكون المرأة فى الشارع كما تكون فى الصلاة .

أمره بالمعروف وتغييره للمنكر :

كان بعد ما قرأ كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من كتاب الإحياء - يأمر وينهى لا يخاف لومة لائم وأول حادثة صدع فيها بالنهى عن المنكر فى حفل عظيم من الناس - كانت يوم شهد حفلة للطريقة المولوية ورأى رقصهم وحلقة غلمانهم فصاح

فيهم بما معناه «أيها المسلمون إن هذا منكر لا يجوز النظر إليه، ولا السكوت عنه، لأنه إقرار له وإنه يصدق على مقترفيه قول الله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ [سورة الأعراف الآية ٥١] وإنني قد أديت الواجب فاخرجوا رحمكم الله» وخرج مفارقا لهم .

ما وقع بينه وبين شيخه الجسر بسبب هذا الإنكار :

كان الشيخ الجسر على علمه بالعلوم الشرعية وإلمامه بالعلوم العصرية شيخا في الطريقة الخلوئية ، فكان ينصح لتلميذه بأن يكف عن أهل الطريق ولكن لا يأتيه على ما يفعلونه مما يتدعونه في الإسلام ويشرعونه لأنفسهم مما لم يأذن به الله بدليل . وكان السيد يقول له «أقنعني بما تقول بالدليل ليصير عقيدة لي أرجع إلى قولك» فكان يجيبه الشيخ بقوله «أنت أهل علم وصاحب حجة وليس لك عندي غير ما قلت» وكما كان ينكر على العامة كان ينكر على الحكام والكبراء ما يراه منهم لا يخص بإنكاره أحدا دون أحد، وكذلك كل ما كان عن عقيدة ولوجه الله من الأعمال لا يتركه صاحبه على كل حال .

هذه ترجمة السيد قبل هجرته إلى مصر، وقد رأينا أنه صار عالما معلما مرشدا ذا منزلة رفيعة في العلم والتقوى والنصح للمسلمين وهو بعد في أول العقد الثالث من عمره، وسنعرض في الجزء الآتي لترجمته بعد رحلته^(١) أو هجرته إلى مصر .

سبب الهجرة إلى مصر :

ما كانت البلاد العثمانية في عهد استبداد عبد الحميد لتتسع لمثل السيد رشيد فيما يريده من إصلاح عام، وما كان هو ليستطيع الصبر على القعود عما اعتقد وجوبه وجوبا حتميا من النهوض بالإصلاح، فكان لزاما عليه أن يفكر في الخروج . ولم يكن يصلح لمقصده إلا مصر . هذا إلى ما كان له من رغبة في الاتصال بالأستاذ محمد عبده والأخذ عنه والتكامل به .

(١) الشهاب ج ٧ غرة رجب ١٣٥٤ هـ - أكتوبر ١٩٣٥ م .

سبب تعلقه بالأستاذ الإمام وأول تعرفه به :

كانت مطالعته لمجلة العروة الوثقى باعثاً لإعجابه بالإمام جمال الدين الأفغانى وشغفه والشوق إلى لقائه، وكان كاتبه وهو بالأستانة فى ذلك ولم يساعده القدر على لقائه، وكان حبه للإمام جمال الدين مستلزماً لحبه لتلميذه ومعينه ووارث علمه وحكمته ومحرر العروة الوثقى الشيخ محمد عبده، وكان السيد قد التقى به ببلدة طرابلس من أرض الشام وتعرف به وحضر مجالسه فزاد به شغفه وتعلقه . فلما توفى السيد جمال الدين سنة ١٣١٤ هـ عزم على الهجرة إلى مصر والاتصال بالأستاذ الإمام .

آثار اتصاله بالأستاذ الإمام :

جاء السيد رشيد إلى مصر وهو عالم مفكر وكاتب متبصر، فصحب الأستاذ الإمام صحبة العالم الصغير للعالم الكبير، فكان من أول آثار ذلك إصداره للصحيفة الإصلاحية التى كان يستمد روحها من الأستاذ الإمام، ثم رغبته فى إلقاء دروس التفسير التى كانت أساساً لتفسير المنار، ورغبته إليه فى إقراء علم البلاغة من كتابى إمامها «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» فكانت قراءتهما فتحاً جديداً فى العربية كما كانت دروس التفسير فتحاً جديداً فى الدين .

وفاء السيد للأستاذ الإمام فى حياته وبعد وفاته :

كان السيد الساعد الأمين والعضد الأشد للأستاذ الإمام فى جميع ما قام به، كما كان الترجمان الصادق عن أفكاره والمذرة الصمصام فى الدفاع عنه . واستمر السيد على وفائه للأستاذ الإمام بعد وفاته كما كان فى حياته، وما عرف المصريين وغير المصريين قدر الأستاذ الإمام وحفظ عليهم أمانته وخلد لهم آثاره إلا السيد رشيد وكان إلى آخر حياته - وقد فاق أستاذه فى نواح عديدة من العلم - لا يفتر يلهج بأستاذه حتى كاد ينسى الناس نفسه وأثره الخاص فى الدين والعلم والإصلاح .

مواقفه بعد الأستاذ الإمام :

مضى السيد الرشيد بعد الأستاذ الإمام مضطرباً بأعباء خطته الإصلاحية واتسعت آفاق أعماله إلى العالم الإسلامى كله، وكان لابد له من أن يصطدم بالحالة السياسية التى عليها العالم الإسلامى، والتى هى بطبيعتها العقبة الكثود فى سبيل كل إصلاح فأصبح السيد رشيد من الفرسان المعلمين فى ميدانى الإصلاح الدينى والاجتماعى، وكان فى كليهما يصدر عن إيمان ويجالد بقوة وينظر بحكمة ويفهم ببهان .

غايته السياسية :

لقد كانت غايته السياسية الكبرى إيجاد دولة إسلامية كبرى مرهوبة الجانب تكون مركزا للأمم الإسلامية في العالم بصفة دينية إذا لم تكن بصفة سياسية ، وعلى هذه الفكرة ولهذه الغاية ناصر الدستور العثماني وجمعية الاتحاد والترقي . فلما تبينت له منهم النعرة الملية الضيقة ؛ ناوأهم وعمل على إيجاد مملكة عربية إسلامية مستقلة عن الدولة العثمانية التي كان يرى الاتحاديين سائرين بها إلى الانهيار ، فانضم إلى الجمعية العربية العاملة في مصر وأوروبا لهذا الغرض . ولهذه الغاية كان مع الشريف حسين يوم أعلن الثورة العربية حتى إذا تبين غدر الخلفاء بما كان من معاهدة «سايس - بيكون» ورأى الشريف حسين لا يرجع عن اغتراره بهم - نفص يده منه وانقلب عليه وعلى البيت الهاشمي كله . ولغايته التي ذكرنا كان ساير إمام اليمن يوما حتى تبين له أن نطاق المذهب الزيدي لا يتسع لأمة الإسلام - وفي أثناء هذا أخذت لوامع الدولة السعودية تلوح في الأفق حتى فاجأت العالم بإزالة العرش الهاشمي المتداعي وانتصابها مكانه بمكة المكرمة ، فوجد فيها السيد رشيد ضالته من دولة إسلامية تنفذ الشرع الإسلامي وتقف عند حدوده وتحى سنته وتقاوم كل ما ألصق به من بدع وضلالات وتنتمي إلى أحد المذاهب الأربعة الكبرى ، فشم عن ساق الجد لوازرتها وتأييدها وإرشادها ووجد من ملكها الملك عبد العزيز آل سعود الرجل المسلم الذي يعمل للدين ويتصيح لكل ناصح فيه ، فسار معه السيد رشيد إلى غاية واحدة حتى قضى وهو في طريق رجوعه من تشيع ولي عهده .

فإذا كان يظهر من السيد رشيد تبدل في سيره السياسي فإنما هو تنقل من طريق إلى طريق في سبيل الوصول إلى غاية معينة ، فلما وجد الطريق اللائح البين سلكه حتى مات رحمة الله عليه .

أثر السيد رشيد في العالم الإسلامي :

إن السيد رشيد بما نشر من تفسير القرآن الحكيم على صفحات المنار وما كتب في المنار وغير المنار - وهو الذي جلى الإسلام بصفاته الحقيقية للمسلمين وغير المسلمين ، وهو الذي لفت المسلمين إلى هداية القرآن ، وهو الذي دحر خصوم الإسلام من المنتمين إليه وغير المنتمين إليه وهتك أستارهم حتى صاروا لا يحرك أحد منهم أو من أشباههم يده إلا أخذ بجنايته . فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم - إصلاحا وهداية ، بياننا ودفاعا - كلها من آثاره فرحمه الله وجزاه أفضل ما يجزى العاملين^(١) .

(١) الشهاب ج ٩ غرة رمضان ١٣٥٤ هـ - ديسمبر ١٩٣٥ م .

منهج ابن باديس هي الفتوى

ومن الأقوال والمقالات والتعريف بالرجال نتقل إلى بعض الأمثلة من فتاوى ابن باديس، فقد كان له منهج يعتمد فيه على النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة مع تحكيم العقل، ولا اجتهاد مع النص.
وفي الأسئلة التالية والإجابة عنها ما يؤكد هذا المنهج.

* * *

• سؤال:

ما قول ساداتنا العلماء - رضى الله عنهم، وأدام النفع بهم - فى رجل يزعم أنه قطب الزمان الفرد، وأن الكل دونه، وأنه العارف المسلك، إلى غير ذلك من أعلى صفات العارفين، وأسمى درجات الكاملين، ثم يقول مخاطباً للنبي - صلى الله عليه وسلم - بما نصه:

إن مت بالشوق منكذ	ما عذر ينجيك
إن تبق فى هجرى زائد	للمسولى ندعيك
من هو بالملك موحـد	ينتظر فى أمـرك
عبس بالقبول تساعد	ما نرجوه فيك

ولما قيل له فى هذه الأبيات قال: ألسن المحيين أعجمية . فهل يعد خطابه هذا سوء أدب؟ وهل تجوز مخاطبة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بمثله، وهل صدور مثله من شأن العارفين الكاملين، وهل يقبل منه ما اعتذربه من عجمة ألسن المحيين؟ أفيدونا مأجورين إن شاء الله تعالى من رب العالمين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. انتهى.

الجواب:

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذى أدبه الله فأحسن تأديبه، ووفر من كل خير وكمال على جميع العالمين نصيبه، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الهادين والمهتدين، والتابعين لهم بإحسان

إلى يوم الدين، أما بعد . فقد وقفت على سؤالكم وتأملت من جميع فصوله، وأحطت خبراً إن شاء الله - تعالى - بلفظه ومدلوله، وهممت ألا أجيبكم عنه بحرف واحد، لما أعلم من تصميم أكثر العامة على العناد فيما اعتقدوه من الباطل، وسكوت أكثر الخاصة عن التصريح بالإنكار عليهم، والإرشاد لهم، وتهافت بعض الطلبة القاصرين، على تسويد صحفهم وصحائفهم بشبهات يسمونها بأفواههم دلائل وأجوبة عن متبوعهم من الجاهلين، يحشونها بالأحاديث الضعيفة والموضوعية والتأويلات الباطلة الممنوعة، والروايات المدخولة عمن ليس قوله حجج على الناس في الدين وإنما غايته إذا ثبت عنه ذلك وحسن به الظن أن يؤول على وجه صحيح يقبله الشرع . ثم يردون بمثل هذا على الآيات البينة والأحاديث الثابتة وعمل السلف الصالح المشهود لهم بالخيرة على لسان المعصوم . أسمع هؤلاء ينفع الكلام أو يحسن الجواب؟ لكنني تذكرت ما جاء في وعيد الكاتبين، وفي وعد من بذل الجهد في نصح إخوانه المسلمين، ورجوت ألا أعدم أنصاراً على الحق، وإخواناً متكاتفين في نصرة الدين، من عدول حملة العلم الذين ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فاستخرت الله تعالى وحررت لكم هذا الجواب في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، غير قاصد - علم الله - شخص أحد بالنقص، ولا خارج - بعون الله تعالى - عن جادة الفهم من دلالة الظاهر والنص، والله أسأل أن ينفع به المسترشدين ويهدي به في المعاندين ويفت به أعضاء المفسدين آمين .

قسم ابن باديس إجابته على السؤال إلى:

- (أ) مقدمة في وجوب الأدب مع النبي - صلى الله عليه وسلم .
- (ب) خروج السائل عن دائرة الآداب المرعية وتهجمه على الحضرة النبوية .
- (ج) بيان حرمة مخاطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - بمثل هذا الخطاب .
- (د) المقال لا يصدر من العارفين .
- (هـ) بطلان عذر السائل بعجزة السن المعيين .
- (و) الخاتمة . . نصحية نافعة ووصية جامعة .

أ - المقدمة في وجوب الأدب مع النبي - صلى الله عليه وسلم:

أجمع علماء الملة من جميع الفرق على وجوب الأدب مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - حياً وميتاً كما يجب الإيمان به حياً وميتاً للنصوص القطعية في ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَزَّزُوا

وَتَوْقِرُوهُ... ﴿ [سورة الفتح الآيتان ٨-٩]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [سورة الحجرات الآية ١]. قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ [سورة الحجرات الآية ٢]. وعلى هذا كانت سيرة السلف الصالح معه - عليه الصلاة والسلام - في الحياة وبعد الممات . روى الترمذى عن أنس - رضى الله عنه - كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويتسمان إليه ويتسم إليهما . وجاء من غير وجه أن أصحابه كانوا حوله كأنما على رؤوسهم الطير حتى كانوا من تعظيمه وتوقيره يهابونه فلا يسألونه فيحبون أن يأتى الأعرابى الجاهل فيسأله ، ولما ناظر أبو جعفر المنصور مالكا فى المسجد النبوى ورفع صوته ، قال له مالك : لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوماً فقال : ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ...﴾ [سورة الحجرات الآية ٢]. ومدح قوماً فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ [سورة الحجرات الآية ٣]. وذم قوماً فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ [سورة الحجرات الآية ٤] (*). إن حرمة ميتاً كحرمة حيا . فاستكان لهما أبو جعفر^(١) وقد كان

(*) أى فيما فعلوه محللك الرفيع وما يناسبه من التعظيم ، الجلال المحلى . ومعنى الرفيع : العلى القدر والمحفوظ من إساءة الأدب ، اهـ . صاوى . نعم ، إذا كان من يقول لشيخه : لم ، لا يفلح ، فكيف بالتجاسر على خير الخلق على الإطلاق بالإطباق صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) وقال تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [سورة النور: ٦٣]. بأن تقولوا يا محمد . قولوا يا نبي الله يا رسول الله ، فى لين وتواضع وخفض صوت ، اهـ . محلى . قوله : لا تجعلوا دعاء الرسول أى ندائه ، بمعنى لا تنادوه باسمه فتقولوا يا محمد ولا بكنيته فتقولوا يا أبا القاسم ، بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم والتكريم والتوقير بأن تقولوا يا رسول الله ، يا نبي الله ، يا إمام المرسلين ، يا رسول رب العالمين ، يا خاتم النبيين . واستفيد من الآية أنه لا يجوز نداء النبي بغير ما يفيد التعظيم لا فى حياته ولا بعد وفاته . فهنا يعلم أن من استخف بجنابه - صلى الله عليه وسلم - فهو كافر ملعون فى الدنيا والآخرة . قوله : وخفض الصوت أى لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن مَحْبُطٌ أَصْوَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات ٢]. صاوى محشى الجلالين بالحرف . وفى الشفا ما نصه قال : قال إبراهيم التيمي : واجب على كل مؤمن متى ذكره - صلى الله عليه وسلم - أو ذكر عنه أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ فى هيئته وفى جلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه صلى الله عليه وسلم ويتأدب بما أدبه الله ، مثل قوله تعالى : ﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ...﴾ إلخ ، و﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ...﴾ وغيره كما تقدم . اهـ .

مالك - رحمه الله تعالى - إذا ذكر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يتغير وينحنى حتى يصعب ذلك على جلسائه .

وكان جعفر الصادق كثير الدعابة والتبسم ، وإذا ذكر عنده النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - اصفر . والواقف على سير السلف الماضين والعلماء والمتقدمين يجد فيها كثيرا من هذا في مراعاة حرمة - صلى الله عليه وآله وسلم - وشدة التأدب مع جنابه الشريف ، ومن أكثر الناس محافظة على الأدب وتحريضا عليه ووصاية به شيوخ الزهد والعلم من أئمة التصوف العارفين كرجال الرسالة القشيرية الذين أبقى الله بعظيم فضله على الإسلام وجميل صنعه لنصرة الدين كلامهم حجة على كل من ينتسب إلى طريقتهم في مثل هاته الأزمان ، قال في الرسالة عن عبد الله بن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم ، وعن أبي الدقاق : من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل ، وقال أبو حفص الحداد : التصوف كله أدب لكل وقت أدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب ، فمن لازم الأدب بلغ مبلغ الرجال . ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو الوصال ، وقال : حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن .

ب - بيان خروج السائل عن دائرة الأدب المرعية وتهجمه على الحضرة النبوية :
قال :

إن مت بالشوق منكذ ما عذر ينجيك

أى حق للعبد الحقير على السيد الجليل الكبير ، حتى يطالبه بالاعتذار إليه إذا لم يأتته ؟ أم كيف ساخ لهذا المسكين أن يقول له لا عذر ينجيك ، ثم ينجيه هذا العذر ؟ إن لو كان ينجيه ، أمن اللوم في شأنك والعتاب لأجلك ؟ من أنت يا هذا حتى يعتذر سيد الأولين والآخرين لك ، ثم لا ينجيه من التقصير في حقك عذر عندك ؟ لقد وضعت نفسك والله في غير محلها وجهلت مقام النبوة وجلالة منصبها .

قال :

إن تبق في هجرى زائد للمولى ندعيك
من هو بالملك موحد ينظر فى أمرك

أى حق لك على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى صرت تخوفه بأنك تدعوه وتشكو به إلى الله - تعالى - لينظر فى أمره ، وهل يتصور منه - صلى الله عليه وآله وسلم -

وآله وسلم - تقصير في حق أحد حتى يشكو به إلى الله - تعالى - حاشا ذلك الجناب الكريم، والنبى الرؤوف الرحيم^(١) أن يقصر في خير لأحد في حال حياته وبعد مماته وكيف ذلك وهو الذى قال له الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الشعراء الآية ٣] ^(٢). وهو الذى لما تعرض عليه فى قبره أعمال أمته يستغفر للمذنبين، لكنك يا مسكين توهمته كعظماء الدول الذين يقصرون مع من دونهم فيخوفون بمن يفوقهم، على أنه لم يكن من أدب العبيد أن يهددوا الوزير بسلطة الأمير، فأين أنت يا هذا حتى من آداب الوزراء والسلاطين بل الأنبياء والمرسلين؟

قال:

عسى بالقول تساعد ما نرجسوه فيك

هذا تعريض للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بما خاطبه الله تعالى فى سورة ابن أم مكتوم، وتخويف له بما يلحقه إن قصر مع هذا المسكين من العتاب واللوم، واحتجاج عليه بالقرآن، وإلزام له بالقبول والإتيان، وهذا تهجم عظيم، وتجاسر شديد، لا يقدم عليه عامة المؤمنين، فكيف بمن يزعم أنه خاصة العارفين؟

ج - بيان حرمة مخاطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - بمثل هذا الخطاب:

قد اشتمل صدر هذا الكلام على نفى قبول العذر من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وذلك يستلزم أن له عليه حقا إن وقع فيه تقصير احتيج معه إلى العذر ثم لا يقبل منه. وعلى أنه يرفع به دعوى لينظر فى أمره، وهذه التهجمات القبيحة التى لا تصدر من العبيد إلى السادة، هى لاشك أقوى فى سوء الأدب من مجرد رفع الصوت الذى ينهى الله تعالى عنه وجعله سببا فى حبوط الأعمال، فتكون قطعاً أحق بالمنع والتحريم. وما أشبه طلب هذا الرجل القبول والإتيان بهذا الخطاب المزعج الغليظ بأولئك الذين نادوه من وراء الحجرات ولم يصبروا حتى يخرج إليهم. بل هو أشد، لأن القوم كانوا حديثى عهد بجاهلية لم يخالطوا المسلمين ولا تأدبوا بأداب الإسلام. وهذا يدعى منزلة الأولياء والصالحين، ثم يأتى بما لا يصدر من العامة الجاهلين فى آليته:

(١) القائل إنما أنا قاسم والله يعطى . . إلخ.

(٢) وقال تعالى فى سورة التوبة الآية ١٢٨: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

تأدب في الخطاب، ووقف ذليلاً على الأعتاب، فيكون في إسلامه وأدبه . خير شفيح لوصل سببه، لكن الغرور والغفلة، أعظم أسباب المحنة، عياداً بالله : وأما آخر كلامه فقد اشتمل على طامة عظمى وجرأة كبرى بتعريضه للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في سورة عبس على ما تقدم في آخر الفصل الأول، وهذا في سوء الأدب أدخل، وفي الحرمة أشد، لأن صاحبه قد اعتقد تقصيراً من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ليم عليه فعرض له هو به، وخوفه من أن يقصر معه مثل ذلك التقصير فيلام عليه مثل ذلك اللوم . كبرت كلمة والله خرجت من فيه هذا المغرور المسكين، ولا حول ولا قوة إلا بالله ولا توفيق إلا به .

فإن قلت هذه قصة جاءت في القرآن وخبر ذكره الله تعالى . قلنا فالجواب عن ذلك ما قاله الإمام الحافظ خزاعة العلم وقطب المغرب أبو بكر بن العربي في سورة «ص» من كتاب الأحكام . قال : للمولى أن يذكر ما شاء من أخبار عبيده ويستر ويفضح ويعفو ويأخذ، وليس للعبد أن ينبز في مولاه بما يوجب عليه اللوم، فكيف بما عليه في الأدب والحد، وإن الله تعالى قد قال في كتابه لعباده في بر الوالدين : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ ﴾ [سورة الإسراء الآية ٢٣] . فكيف بما زاد عليه، فمناظرك بالأنبياء وحقهم أعظم، وحرمتهم أكد، وأنتم تغمسون ألسنتكم في أعراضهم، ولو قررتم في أنفسكم حرمتهم لما ذكرتم قصتهم، اهـ .

وما بعد هذا البيان بيان، وإن هذا الكلام لكاف وحده عند اللبيب المنصف في جواب ما تقدم من السؤال، ومن عقائد الإيمان مما يجب علينا في حق الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - ألا نخاطبهم بما خاطبهم الله تعالى به ولا نذكر في كلامنا شيئاً مما عوتبوا عليه لا بالتلويح ولا بالتصريح إلا بحكاية لفظ القرآن والحديث، وأما الله تعالى فإنه يخاطبهم بما شاء، لأنهم عباده وصفوته من خلقه، لهم من كمال المعرفة به ما ليس لغيرهم، وله عليهم من الفضل العظيم ما لا مطمع فيه لسواهم، وأما نحن فموقفنا معهم موقف العبيد مع السادة، فيجب علينا معهم اعتقاد الحرمة، وإكبار الجانب، ولزوم الأدب، في الأقوال والأفعال، وجميع الأحوال . ولا يجوز لنا ونحن خدامهم وأتباعهم أن نذكرهم أو نخاطبهم بما خاطبهم به ربهم ومالكهم، فما أبعدنا والله عن ذلك المقام، وقد ذكر هذه العقيدة الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي في كتبه منها قوله في سورة «الأحزاب» من كتاب الأحكام : وعهدنا إليكم عهداً لن تجدوا له رداً، إن أحداً لا ينبغي أن يذكر نبياً إلا بما ذكره الله لا يزيد عن ذلك . اهـ . وقال الإمام

الصوفى أبو عبد الله بن الحاج فى كلامه على المواسم من كتاب المدخل : وقد قال علماؤنا - رحمة الله عليهم - إن من قال عن نبى من الأنبياء فى غير التلاوة والحديث إنه عصى أو خالف فقد كفر نعوذ بالله من ذلك ، اهـ . ونقل هذا الكلام عنه الشيخ محمد الزرقانى فى قسم الخصائص من شرحه للمواهب وسلمه : ولا يخفى أن حكم التعريض فى هذا المقام حكم التصريح . فنعوذ بالله بالدين وتوقع فى سوء الأدب مع سيد المرسلين ولا حول لا قوة إلا بالله العلى العظيم .

د - هذا المقال لا يصدر من العارفين :

اعلم أن السادة العارفين هم أرسخ الناس قدماً فى محبة النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - وتعظيم حرمة ، ومراعاة شريف جانبه ، وتعزيزه وتوقيره وبره . تجد ذلك فى صلواتهم عليه ، وفى أدعيتهم لله تعالى عن ذكره ، والتوسل به ، وفى مناجاتهم له عند الشوق إليه ، وفى تأليفهم عند الكلام فى حقه . وهذه أشياء مروية عنهم ، معروفة منهم ، لا تحتاج إلى شاهد ولا تخفى على طالب . بل هم أكثر الناس أدبا مع شيوخهم ومرييهم ومريديهم ، بل هم أدب الناس من جميع الناس ، قال قائلهم : من لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له . وكتبهم بهذا طافحة ، وسيرهم أصدق شاهد عليه . فمعاذ الله أن يكون مرتكب ما تقدم مع الإصرار عليه من عامة عامتهم فضلاً عن أن يكون ممن فوق ذلك ؛ إذ لا نشك أن ذلك الخطاب الغليظ الجافى لا يقوله المؤمن العامى الباقى على فطرة الإيمان ، فضلاً عن أهل الخصوصية والعرفان .

ومن لا يراعى الأدب فى خطاب سيد المرسلين . كيف يصلح أن يكون من العارفين السالكين ، إذ من لا يؤدب نفسه كيف يؤدب غيره . ومن لم يؤمن على آداب الخطاب كيف يؤمن على ما يدعيه من مقامات الكاملين ؟ قال أبو يزيد البسطامى - رحمه الله تعالى - لبعض أصحابه : قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية . وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد . فمضينا إليه فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه اهـ .

فانظر يا أخى رحمك الله بإنصاف إلى هذا العارف الكبير كيف يكون وزن الرجل بميزان الشرع فطرحة لإخلاله بأدب واحد من الآداب - فكيف بنا لا نطرح هذا المتهمم

على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بقبیح التعريض وسوء الخطاب . قال أبو إسحاق الشاطبي في كتاب الاعتصام إثر كلام أبي يزيد المتقدم : هذا أصل ، أصله أبو يزيد - رحمه الله تعالى - للقوم ، وهو أن الولاية لا تحصل لتارك السنة وإن كان ذلك جهلا منه (١) . فما ظنك به إذا كان عاملا بالبدعة كفاحا اهـ .

ونقول : فما ظنك به إذا كان يتهجم على الحضرة النبوية بمثل ذلك الخطاب الذي لا نظير له في كلام صغار المنتسبين ، وعمامة المداحين الجاهلين فضلا عن كلام العارفين ؟ وقال الشيخ عبد الغنى النابلسي في شرحه لكتاب الطريقة المحمدية ، عند كلام أبي يزيد المتقدم : إن الله - تعالى - لا يؤمن على أسرارهِ وأنوارهِ إلا من آمنه أولا على الأخلاق المرضية ، والآداب المحمدية - الله أعلم حيث يجعل رسالته - والحكمة وضع الشيء في موضعه ، وهي ملازمة لأفعال الله - تعالى - لا ينفك عنها فعل من أفعاله تعالى ألبتة ، وليس من الحكمة وضع الولاية والكمال في المنتهك الحرمة والتارك للآداب ، بل الحكمة تقتضى عقابه لا ثوابه أو العفو عنه لا المدح منه . اهـ .

فلا نشك بعد هذا في بطلان دعواه الواسعة المضادة لتهجمه وإصراره على سوء الأدب مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا دليل على حال المرء مثل كلامه ولا أصدق على قلبه من ترجمان لسانه (٢) .

هـ - بطلان عذر السائل بعجمة السنّ المحبين :

اعلموا أن خير هذه الأمة هم أحبها في نبيها وهم أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية على لسان المعصوم وعلى قدر حبهم فيه كان تعظيمهم له وأدبهم معه .

لما نزل قوله تعالى : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ [سورة الحجرات الآية ٢] قال أبو بكر - رضي الله عنه - : والله لا أكلمك بعدها إلا كأخى السرار ، وصار عمر - رضي الله تعالى عنه - لا يسمعه حتى يستفهمه ، ولزم ثابت بن قيس - رضي الله تعالى عنه - بيته وكان جهير الصوت مخافة أن يحبط عمله حتى اعتذر للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فعذره وبشره بالجنة فأنزل فيهم وفي أمثالهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ ﴾ [سورة الحجرات الآية ٣] . هؤلاء هم الحججة على الخلق وهم الذين لا يبلغ من جاء

(١) يعنى أن الوالى من لا يكون للشرع عليه اعتراض .

(٢) ما فيك يظهر على فيك وكل إناء بالذى فيه يرشح

بعدهم مد أحدهم ولا نصيفه، وهذا أدبهم وهم سادات المحبين، وقد كانت ألسنتهم - والله - فصيحة في العلم والآداب، منزهة عن كسل ما يعاب، فما بال هذا المسكين يركب ذلك المركب الصعب ويخرق سياج الأدب، ويعتذر بعجمة ألسن أهل الحسب، كلا والله، لقد تجاسر على أهل المحبة الحقيقيين وافتسرى عليهم، وادعى عليهم ما ليس فيهم، ثم لا يجد أبدا نظيرا للكلامه عند واحد منهم، وإن اقتدى ببعض المغرورين المتعجرفين ممن لم نعلمهم حتى الآن. فالحجة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وشيوخ الطريقة المتقدمين قاطعة به وبأمثاله أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

و- الخاتمة نصيحة نافعة ووصية جامعة:

اعلموا - جعلكم الله من وعاء العلم، ورزقكم حلاوة الإدراك والفهم، وجعلكم بعزة الاتباع، وجنبكم ذلة الابتداع - أن الواجب على كل مسلم في كل مكان وزمان أن يعتقد عقدا يتشربه قبله وتسكن له نفسه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتبنى عليه أعماله، أن دين الله تعالى من عقائد الإيمان، وقواعد الإسلام، وطرائق الإحسان إنما هو في القرآن والسنة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين أتباع التابعين، وأن كل ما خرج عن هذه الأصول ولم يحظ لديها بالقبول - قولا كان أو عملا أو احتمالا - فإنه باطل من أصله، مردود على صاحبه - كائنا من كان في كل زمان ومكان - فاحفظوها واعملوا بها تهتدوا وترشدوا إن شاء الله تعالى، فقد تضافرت عليها الأدلة - من الكتاب والسنة، وأقوال أساطين الملة، من علماء الأمصار، وأئمة الأقطار، وشيوخ الزهد الأخيار. وهي لعمر الحق لا يقبلها إلا أهل الدين والإيمان، ولا يردها إلا أهل الزيغ والبهتان. والله أسأل التوفيق لى ولكم ولجميع المسلمين، والخاتمة الحسنة والمنزلة الكريمة فسى يوم الدين، آمين. والحمد لله رب العالمين.

قال مؤلفه عبد الحميد بن باديس عفا الله عنه :

«فرغت من تحريره بين عشية يوم الاثنين وصبيحة يوم الثلاثاء السادس والعشرين والسابع والعشرين من ذى الحجة الحرام عام ١٣٤٠هـ^(١)».

* * *

(١) رسالة: جواب السؤال عن سوء مقال ص ١ - ٢٠ المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة (دون تاريخ).

وأمثلة أخرى من فتاوى ابن باديس،

* سأل سائل عن جواز لباس الرجال مثل لباس النساء، وظهورهم في زيهن على خشبة المسرح، فكان الجواب من رئيس الجمعية كما يلي:

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لعن الرجل يلبس لبس المرأة، والمرأة تلبس لبس الرجل، رواه أبو داود وغيره بسند رجال الصحاح، وروى أصحاب السنن عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: لعن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهون^(١) من الرجال بالنساء، وبهذه الأحاديث النبوية علم أن تزيى الرجل بزى المرأة الواضح من السؤال حرام لأن اللعن لا يكون إلا على المحرم .

* * * *

* وسأل آخر هل اتصال البنيان في القرية شرط في صحة الجمعة؟ فكان الجواب ما يأتي:

ليس في اشتراط اتصال بنيان القرية حديث، وإنما مرجع المسألة للنظر، وقد أفتى بعض الفقهاء باشتراط الاتصال، ولكن الإمام الأبي تلميذ ابن عرفة بعدما ذكر هذه الفتوى في شرحه على صحيح مسلم قال: والأظهر أنهم إن كانوا من القرب بحيث يرتفق بعضهم ببعض في ضرورياتهم والدفع عن أنفسهم جمعوا. لأنهم - وهم كذلك - بحكم القرية المتصلة البنيان. وما قاله الأبي نقله الخطاب وسلمه، وزاده تأييدا بما نقله من جزم صاحب الطراز بعدم اشتراط الاتصال، واستدل له بأن بعض بيوت القرية قد يخرب فيحصل الانفصال ومع ذلك لا يضر ما لم يبعد ما بين البيوت، ولما كان المقصود من القرية هي التوافق والتعاون، فإذا حصل فأهل تلك البيوت قرية وإن انفصلت بيوتها فهي في حكم الاتصال، فالقرية الواقعة في السؤال إذا كانت بيوتها على هذا الوجه فإنها تجمع ولا يضرها الانفصال.

* * *

(١) كذا في الأصل، وصوابه: والمتشبهين.

* وسأل أحد أهالي بلدة (ميشلى) عن أبناء المتجنسين بالجنسية الفرنسية هل يجوز دفنهم فى مقابر المسلمين، فكان الجواب منه حسماً بما يلى :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله الله وآله وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وبعد فابن (المطورنى) إذا كان مكلفاً ولم يعلم منه إنكار ما صنع أبوه والبراءة منه - فهو مثل أبيه، لا يصلى عليه ولا يدفن فى مقابر المسلمين، وإن كان صغيراً فهو مسلم على فطرة الإسلام يدفن معنا ونصلى عليه .

قاله وكتبه خادم العلم وأهله
عبد الحميد بن باديس
الجزائر ٢٥ جمادى الأولى ١٣٥٤ هـ (١) .

ابن باديس وطريقته فى التفسير

حرص ابن باديس كل الحرص على أن يكون تفسيره لآيات الذكر الحكيم واضحاً كل الوضوح، يشرح ألفاظ الآية، ثم يعرج إلى معناها العام مبيناً الجوانب الفقهية فيها مطبقاً ما جاء بها من أحكام على السلوك العام للمسلم، وكل آية من الآيات لها تذوق إيماني، وتجليات إلهية تأخذ بيد المسلم إلى الطريق السوي، طريق الهدى والرشاد طريق الله عز فى علاه .

يظهر هذا واضحاً جلياً فى النماذج التالية من تفسيره المعروف باسم «تفسير ابن باديس فى مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» .

من سورة الفرقان:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ

(١) البصائر : السنة الثانية العدد ٧٩ جمادى الآخرة ١٣٥٦ هـ - ٢٠ أغسطس ١٩٣٧ م .